



# العاشرة مجلة

المجلد الثالث، ٢٠١١

مجلة مسجلة لدى المسجل للجرائد في الهند (RNI) برقم KERARA00011  
ومجلة معتمدة لدى جامعة كيرلا، الهند



قسم العربية، كلية الجامعة، تروناتيرم، كيرلا، الهند، 695034

## روائع الجمال الفني في الأحاديث النبوية

عبد اللطيف ب. ب.

أستاذ مساعد، قسم العربية، الكلية الحكومية، ملايرم، كيرالا، الهند

جرت في جميع أقطار العالم منذ عهد النبي ﷺ حتى في عصرنا هذا، خدمات جليلة ودراسات عميقة لا تحصى في مجال الأحاديث النبوية جمعاً وشرحاً وتخيرياً وجريحاً وتعديلها، وصرف كبار المحدثين والحفظاء والأئمة جهودهم المضنية في استنباط المسائل والأحكام منها، وحلّ الألفاظ والتركيب فيها وفي ضبط المتنون والإسناد منها، واستخدم علماء اللغة والنحو والبلاغة الأحاديث النبوية للاستدلال بها في القواعد النحوية والأساليب البلاغية. ولكن قلماً نجد من العلماء والأدباء عالجوا كلام الرسول صلى الله عليه وسلم كنصّ أدبي رفيع يبرز فيه قوة الجمال الفني والتوصير الرائع أداءً ومعنى وأسلوباً، وذلك للكشف عن المعالم الجمالية في ألفاظه ومعانيه وصوره وتركيبيه.

الحديث النبوي نصّ أدبي في الذروة من البيان، ولا يرتفع فوقه في مجال الأدب الرفيع إلا كتاب الله بلاغة وفصاحة وروعة. ومن أفضل ما قيل في ذلك ما سجّله الجاحظ رائد البلاغة العربية حيث يقول: "وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثُرَ معانِيهِ، وجَلَّ عن الصنعةِ، وَثَرَّ عن التكليفِ... واستعمل المبسط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورَغَبَ عن الهجين السوقي. فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حفَّ بالعصمة، وشَيَّدَ بالتأييد، ويسَرَ بالتوقيف... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمَّ نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهبَاً، ولا أكرم مطلبَاً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه، من كلامه صلى الله عليه وسلم، كثيراً". "القد اكتملت في نبيّ البيان رسالة الأديب المفكر المتأمل، وإذا كانت الأعمال بنتائجها الحاسمة فإننا نترك الأستاذ دريني خشبة أن يحدّثنا عن القيمة العليا لرسالة محمد الأديب العظيم حين يعقد مقارنته بين رسول الله وبين كبار الأدباء في أوروبا المتحضرة، فيرى كفة محمد ترجح. ويصل الأستاذ في بحثه العظيم الذي جاء بمجلة الرسالة العدد (٢٩٧) بعد أن وازن بين كبار الشخصيات مثل دانتي، وملتن، وبيكون، وبين رسول الله ﷺ كأدباء، إلى نتيجة حيث يسجل: "هؤلاء الأدباء العظام في عصر لويس الرابع عشر ببير كورنيل، وديكارت، وموليير، ولافونتين.

### جمالية الألفاظ

تبرز جمالية الألفاظ ورونقها في عقريته ﷺ، وبراعته الفائقة في اختيار ألفاظه ومراعاته الفروق الدقيقة بين معاني الكلمات. وجمال الألفاظ له أثر كبير في امتناع النقوس وتهيئتها لقبول تأثير المعاني التي تتضمنها، ولا تبلغ الألفاظ مداها في الجمال والإبلاغ والتأثير إلا إذا وضعت في تركيب معين ونظمت في سياق خاص، وارتبط بعضها ببعض داخل العبارة أو الجملة. وقد وضع البلاغيون لتجميل النحو وتزيينه وتنقيحه وتهذيبه شروطاً والتي تعطي المفردات الجمال الفني والصياغة الأدبية، وتحقق الكلمات النغم الممتع والانسجام الصوتي. كون حروف الكلمة متباينة المخارج، وعدم كونها غريبة متوعرة لا يمكن استيعابها وفهمها، كما لا تكون عامية مبتذلة تنفر منها الأسماء والأذواق، ولا يتزايد عدد الحروف في الكلمة عن حد الاعتدال. ومن هذه الناحية، اختصت مفرداته ﷺ بالفصاحة والجزالة والخامة، والوضوح في الدلالة والخلوص من كل بشاعة أو عيب. فقد جمع في كلامه بين جزالة البداوة وفصاحتها، ورقّة الحضارة وعدوبتها، لذلك جاء كلامه جلاً في رقة. متينا في عذوبة. اتصف ﷺ ببراعة فائقة في اختيار ألفاظه، ومراعاته الفروق اللغوية

<sup>١)</sup> الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ص ٢/١٧

الحقيقة بين معاني الكلمات، فيوضع كل نوع منها موضعه الأفضل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره، جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة. فقد يشترك لفظان في معنى واحد، ولكن أحدهما أدق من الآخر في الدلالة على المعنى، وأقدر على التعبير عنه من اللفظ الآخر؛ لأن لكل لفظة منها خاصية تميز بها عن صاحبها في بعض معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها. يقول الرافعي في وحي القلم: ولقد رأينا هذه البلاغة النبوية العجيبة قائمة على أن كل لفظ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللغة؛ فالغاية فيها بالحقائق، ثم الحقائق هي تختار أفالظها اللغوية على منازلها؛ وبذلك يأتي الكلام كأنه يُنطق للحقيقة المعبر عنها، والكلمة الصادقة تُنطق مرة واحدة؛ فصورتها اللغوية لا تكون إلا صريحة منكشفة عن معناها المضيء كأنما ألقى فيها النور<sup>١</sup>.

### جمالية المعاني

تجلى هذه الجمالية في قدرته على التعبير عن المعاني الكثيرة بعبارات تتسم بالإيجاز الشديد والكتافة الدلالية والسمو في المعاني، وهو ما وصف الرسول ﷺ به نفسه بقوله: "بعثت بجواب الكلم". والمقصود بجواب الكلم: الإيجاز والإيجاز - وهو تأدية المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة - عند البلاغيين من شروط جمال الكلام وبلاعاته، وهو غالب على أسلوب الرسول، لأن الإيجاز قوة في التعبير، وامتناع في اللفظ، وشدة في التماسك، وهذه صفات تلزم قوة العقل وقوة الروح، وقوة الشعور وقوة الذهن، وهذه القوى كلها اجتمعت على أكمل ما تكون في الرسول، ومن هنا شاعت جواب الكلم في خطبه وأحاديثه حتى عدت من خصائصه.

ومن جواب الكلم: "المؤمن مرآة المؤمن". هذا الحديث يقوم على ركيزتين جماليتين: الأولى: التشبيه، والثانية: الإيجاز. فقد تألف الحديث من ثلاثة كلمات فقط، ولكنه حوى كثيراً من المعاني. فالنبي الكريم بهذه العبارة الموجزة يشبه المؤمن في علاقته بأخيه المؤمن بالمرأة التي تكشف العيوب والمحاسن، وكذلك المؤمن يكشف لأخيه ما به من عيوب ومحاسن، ويصدق أخيه المؤمن بالمرأة التي تكشف العيوب والمحاسن، فيكون كالمرأة له ينظر فيها محاسنه فيستحسنها ويزداد منها، ويرى مساوئه فيستبعدها وينصرف عنها. والحديث بلغ الغاية في التصوير وفي تحقيق الدلالات الكثيفة والمعاني الجميلة. فالمسلم يعمل المرأة لصاحبها، فالمرأة ترى الناظر الحسنات والسيئات بلطف، وكذا المسلم يبين لأخيه المسلم عيوبه ويبصره بأعماله بأسلوب حسن وكلام لطيف. والمرأة لا تكشف العيوب والمحاسن إلا لحاملها، وكذلك المسلم لا يفضح أخيه، بل ينصحه في السر. وكلما كانت المرأة أكثر صفاء وأكثر نقاء، كان عكسها للصورة أكثر وضوحاً. ولذلك فالمؤمن لا يظهر لأخيه المؤمن عيوبه، ويخفى المحاسن أو العكس، وإنما هو كالمرأة يعكس الصورة الصحيحة من غير غش ولا خداع.

### جمالية التصوير

تجلى هذه الجمالية في قدرته على التعبير والتصوير والتشبيه، مما يدل على موهبة فذة، تشعر القارئ والسامع على السواء كأنه أمام لوحات فنية ممتعة. وقد استخدم عليه السلام وسائل التصوير المختلفة من كناية وتشبيه، واستعارة ومجاز، وغيرها من الأساليب. وهي كلها أساليب تعتمد على إبراز المعاني في هيئة مجسمة وصور حية متماسكة ومحركة في آن واحد معاً. ولابد من تأكيد حقيقة هامة وهي أن الصورة الفنية في الحديث الشريف كما في القرآن الكريم تعتمد الوضوح، وتسعى إليه مهما كانت احتمالات تعدد المعنى. من الصور الفنية في الحديث الشريف ما ذكره الرسول، عليه السلام، لأصحابه وهم يتهدلون لخوض معركة بدر الكبرى حين قال: "هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها". ومناسبة هذا الحديث أنه ﷺ عندما علم بخروج قريش لمحاربته في معركة بدر الكبرى، سأله رجلين كانوا يسقيان الماء لقريش عن

<sup>١</sup>) مصطفى الصادق الرافعي، وحي القلم، ص ١٧/٣

أشراف مكة المشاركون في المعركة، فأخبراه بخروج نخبة من الأشراف من بينهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف وغيرهم كثير من أشراف قريش. فقال الرسول ﷺ قوله هذه: "هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدتها" وفي رواية أخرى: "قد ألقت إليكم أفلاذ كبدتها". والحديث في معناه الحقيقي والمبادر يفيد أن مكة دفعت إلى قتال المسلمين نخبة من أبنائها، وساداتها، وفرسانها، ومن يعول عليهم في الرأي وال الحرب. وهذا التعبير لا يثير أي انفعال أو تأثير عكس التعبير المجازي الاستعاري؛ فالاستعارة في الحديث كشفت عن إيحائية جديدة واستحدثت معنى جديدا في النطق، وجعلت العبارة ذات إيحاءات ودلائل عاطفية وإنسانية لم يكشف عنها المعنى الحقيقي.

### جمالية الأسلوب

وأسلوب الحديث النبوى يمتاز بالجذالة والوضوح، والدقة في الوصف والتعبير، والإبداع في التشبيه والتوصير، والموسيقى الراوحة في الألفاظ والإيجاز في القول ومجانبة التكافل. فمن خصائص أسلوب الحديث جمعه بين الجذالة في المفردات والديبياجة والوضوح في الدلالة وإذا اقترن الوضوح بالجذالة في الكلام كان قطعة رائعة من البيان الساحر وأضحت صالحا لأن يلقى على جماهير الناس، فإنه حينذاك يفتح مغاليق قبورهم إلى النور، ويقودهم على درب الخير<sup>١</sup>. قال الجاحظ: إن أخص ما يميز الأسلوب النبوى الأصللة والإيجاز، فالوصلة هي خصوصية النطق وطرافة العبارة، تتجلى فيما كان ينهجه الرسول من المذاهب البينية، ويضعه من الألفاظ الاصطلاحية. ومن خصائص أسلوب الحديث أيضاً بعده عن التكلف مع تجديده في أساليب النثر المأثورفة فلا يجد القارئ التكلف في سمع، ولا التصنع السمح في صورة، بل تطالعه سجية مرسلة، وأسلوب حرّ من كل قيد، خال من كل زخرف مستكره. كان ﷺ على حد الكفاية في قدرته على الوضع، والشقيق من الألفاظ، وانتزاع المذاهب البينية حتى اقتضب الفاظاً كثيرة لم تسمع من العرب قبله ولم توجد في متقدم كلامها وهي تعد من حسنات البيان، لم يتافق لأحد مثلاً في حسن بلاغتها، وقوتها دلالتها، وغرابة القرية في اللغوية في تأليفها وتنضيدها، وكلها قد صار مثلاً، وأصبح ميراثاً خالداً في البيان العربي. قوله ﷺ : "مات حتف أنهه" وقد روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: وسمعته يقول: مات حتف أنهه وما سمعتها من عربي قبله.<sup>٢</sup> ومثال ذلك قوله ﷺ في وصف الحرب يوم حنين "الآن حمي الوطيس" والوطيس: هو التنور مجتمع النار والوقود، فمهما كانت صفة الحرب، فإن هذه الكلمة بكل ما يقال في صفتها، وكانت هي نار مشبوهة من البلاغة تأكل الكلام أكلًا، وكانت هي تمثل لك دماء نارية أو ناراً دمومية! وقوله: "بعثت في نفس الساعة".

وقوله في حديث الفتنة: "هذنَة على دَخْن"، والهدنة : الصلح والمواعدة والدخن: تغير الطعام إذا أصابه الدخان في حال طبخه فأفسد طعمه. وهذه العبارة لا يعدلها كلام في معناها، فإن فيها لوناً من التصوير البيني لو أذيبت له اللغة كلها ما وفت به، وذلك أن الصلح إنما يكون مواعدة ولينا، وانصرافاً عن الحرب، وكفا عن الأذى، وهذه كلها من عواطف القلوب الرحيمة فإذا بني الصلح على فساد، وكان لعلة من العلل، غلب ذلك على القلوب فأفسدها، حتى لا يسترخ غيره من أفعالها، كما يغلب الدخن على الطعام، فلا يجد آكله إلا رائحة هذا الدخان، والطعام من بعد ذلك مشوب مفسد. ومن تلك الأمثال قوله ﷺ كل أرض بسماتها، وقوله "يا خيل الله اركبي"، وقوله "ولا تنط فيها عنزان"، وقوله لأنجشة، وكان يسير بالنساء في هوادجهن. وهو يحدو بالإبل وينشد القريض والرجز. فتنشط وتتجدد وتتبعث في سيرها فتهتز الهوادج وتضرّب النساء فيها اضطراباً شديداً فقال عليه الصلاة "رويدك رفقاً بالفوارير". وقوله ﷺ في يوم بدر: "هذا يوم له ما بعده" إلى أمثال ذلك كثيرة.

<sup>١</sup>) محمد الصباغ ، التصوير الفني في الحديث الشريف ص ٢٤

<sup>٢</sup>) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ٢١٤

## الأداء في الحديث النبوي

أما فيما يتعلق بأدائه للحديث فقد استخدم النبي ﷺ طرقاً مختلفة لأداء الحديث منها: ما يتصل بالإشارة المفهمة والموضحة كما نقله الجاحظ ولقد استخدم النبي ﷺ أشكالاً مختلفة من الإشارة في أداء الحديث: فإذا أراد أن يبين شدة الأمر ظهر ذلك على ملامحه وفي صوته، وإذا أراد بيان الملازمة جمع بين أصبعيه السبابية والوسطي. ومن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: "صبك ومساكم". ومنها التكرار لأجل تثبيت المعنى في نفس السامع، لأن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثة حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثة. ومنها التصوير التعليمي الواقعي: فمن ذلك ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسعى إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته بيطنها وأرضعته. فقال لنا النبي ﷺ: "أترون هذه طارحة ولدها في النار؟" فقلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه فقال: "الله أرحم بعباده من هذه بولدها".

وعلى الاختصار، فإن الأحاديث الثابتة من أقوال رسول الله ﷺ، كنز زاخر للأساليب الرائعة في الأدب العربي لفظاً ومعنى وأسلوباً وأداء، يجد فيه الدارس والباحث جواهر فريدة خالدة تلتذ بها الأفندة، وتتنوّقها الأنفس، وتشوق إليها الأسماع، وتملأ بها القلوب أفكاراً ومعانٍ. ولكن قلماً نجد مؤرخي الأدب العربي صرفاً عن أيتهم إلى بيان النبي ﷺ بما يستحقه من العناية ليظهروا قوة كلامه بما يتاسب منزلته في الدين والدنيا. ولقد قام بعض الباحثين المحدثين بجهد مشكور في هذا الميدان إلا أنه ما زال بحاجة إلى جهود أخرى صادقة بدراسة الأحاديث وتحليلها من الناحية الموضوعية والبلاغية والتربوية وغير ذلك مع ربطها بالواقع، وهو عمل جليل يحتاج إلى جهد كبير. ومن أحسن ما قيل عن بلاغة الرسول ما قاله الزيارات في وحي الرسالة: إن البلاغة النبوية هي المثل الأعلى للبلاغة العربية، وإذا كان كلام الله كتاب البيان المعجز، فإن كلام الرسول سنة هذا البيان، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول فإن البلاغ صفة محمد وحده<sup>١</sup>. وأرى ما قاله العقاد خاتماً لهذا البحث حيث سجل في كتابه «عقيرية محمد»: ولمن شاء، أن يحسب أسلوب النبي ﷺ - كتابة وخطابة - أسلوباً عصرياً يقتدى به المعاصرون في زماننا هذا وفي كل زمان، لأن الأسلوب الذي يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصري في جميع العصور، ويخطئ من يحسب الوصل بين الجمل شرطاً للكلام العربي القديم، والفصل بينها علامه من علامات الأساليب المبتعدة في الزمن الأخير.<sup>٢</sup>

## المصادر والمراجع:

١. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٩٨ م.
٢. دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر - القاهرة ١٩٨٤ م.
٣. إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلياني، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ١٩٥٤ م.
٤. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي بيروت ٢٠٠٥ م.
٥. البيان النبوي ، د. محمد رجب البيومي ، دار الوفاء للطباعة والنشر المنصورة ١٩٨٧ م.
٦. التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق القاهرة ١٩٦٨ م.
٧. وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي ، المكتبة العصرية بيروت. بدون تاريخ
٨. عقيرية محمد، عباس محمود العقاد، نهضة مصر القاهرة. بدون تاريخ.
٩. التصوير الفني في الحديث النبوي ، محمد الصباغ، المكتب الإسلامي، القاهرة. بدون تاريخ.
١٠. الخصائص الجمالية في الحديث النبوي الشريف ، د. مليكة حفان، جامعة السلطان مولاي سليمان.
١١. بيان إعجاز القرآن، حمد بن محمد الخطابي ، دار المعارف بمصر ١٩٧٦ م.

<sup>١</sup>) أحمد حسن الزيارات، وحي الرسالة ص ٨١/٣  
<sup>٢</sup>) عقيرية محمد ، عباس محمود العقاد ص ٧٤